أسلوب القرآن فى عرض صفات عباد الرحمن فى سورة الفرقان

د. صابر أحمد عبد الحافظ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أنزل عليه ربه القرآن هدى ونورا . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واتبع هديه الى يوم الدين وبعد ..

فان دراسة القرآن الكريم تجعل حياة الناس فى جو روحى صاف وبخاصة اذا كانت هذه الدراسة قائمة على التأمل والتفكر والتدبر واعمال العقل السليم فى معرفة بعض ما تهدف اليه الآيات القرآنية بتوفيق من الله عز وجل . ولكل آية فى القرآن الكريم مغزاها ، ولكل سورة هدفها ، وأسلوبها المتميز .

والدراسة الواعية القائمة على الحس المرهف ، والنظرة الثاقبة تستطيع أن تصل بتوفيق الله تعالى الى ادراك بعض ما تهدف اليه هذه الآيات،وما توصل اليه تلك السور من المعرفة اليقينية بأن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق ، وأن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الذى أنزله سبحانه على رسوله محمد — ﷺ — ليهدى به الله البشرية الى صراطه المستقيم ، وأن العمل بهذا الكتاب الكريم وبالسنة المطهرة هو السبيل الى الاستقامة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

وأقصد بالاسلوب ما جاء فى مقدمة ابن خلدون : « أنه عبارة عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه ... وهو ما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص (١) .

---

(١) علم الاسلوب ، مبادئه واجراءاته ، ص ٧٢ د. صلاح فضل .

والقرآن الكريم « انما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى ... ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر »(٢) .

فبعد أن تناولت السورة الكريمة شبهات المشركين بأسلوب شيق أخاذ وأعقبتها بالرد والتفنيد والابطال وكذا عرضت مظاهر قدرة الله تعالى وآلائه على عباده وأظهرت جحود الذين أعرضوا عن عبادته ونفروا من طاعته والسجود له قامت بعرض صفات عباد الرحمن أصحاب الصفات الكريمة والسجايا الحميدة التى لأجلها استحقوا جزيل الثواب وكريم الجزاء من ربهم فقال تعالى فيهم :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم . ان عذابها كان غراما . انها ساءت مستقرا ومقاما . والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما . أولئك يجزون

---

(٢) اعجاز القرآن الكريم فى ترتيبه منشور فى مجلة « المنهل » مجلة سعودية أدبية شهرية العدد ٤٩١ مجلد ٥٣ سنة ١٩٩١ ص ٤٣ .

الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما • خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما • قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » • صدق الله العظيم

لقد وصف الله تعالى تلك الطائفة من عباده بصفات كريمة وميزهم بمزايا حميدة بدأها بقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » فأضافهم الى نفسه تكريما لهم وتشريفا وتفضيلا — والا فالخلق كلهم عباد الله تعالى — لأن عبوديتهم تختلف عن عبودية غيرهم من البشر اذ العبودية نوعان : نوع يشترك فيه سائر الخلق المؤمن منهم والكافر والصالح منهم والطالح وهو العبودية لربوبيته وألوهيته من حيث انه سبحانه هو الخالق لهم وناصيتهم بيده وهم مقهورون تحت قدرته وهيمنته عليهم •

قال تعالى « الحمد لله رب العالمين »(٣) وقال أيضا « ان كل من في السموات والأرض الا الرحمن عبدا »(٤) •

والنوع الثانى : عبوديه لعبادته ورحمته وهى عبودية أنبيائه وأوليائه وهى المرادة هنا ولهذا أضافها الله سبحانه وتعالى الى اسمه الرحمن اشارة الى أنهم انما وصلوا الى هذه الحال بسبب رحمته(٥) والأولى واحدها عبد وجمعه عبيد والثانية واحدها عابد وجمعه عباد• قال ابن الأنبارى العابد هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره(٦) •

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بأخمصى أطأ الثريا

---

(٣) سورة الفاتحة الآية ٢ •

(٤) سورة مريم الآية ٩٣ •

(٥) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدى ج ٥ ص ٥٤٢ •

(٦) لسان العرب ج ٤ ص ٢٧٧٨ •

دخولى تحت قولك ياعبادى وأنْ صيرت أحمد لى نبيا

وهذه الجملة الكريمة أعنى قوله وعباد الرحمن « مبتدأ وفى الخبر قولان • الأول ما فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة كأنه قيل : وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة •

والثانى قوله تعالى : « الذين يمشون على الأرض هونا » والمراد بعباد الرحمن بادىء ذى بدء أصحاب رسول الله ﷺ ويلحق بهم جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصفات الا أن تلك الموصولات وصلاتها بالنسبة لأصحاب النبى ﷺ تكون أخبارا •

وقوله تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ••• » الخ كلام مستأنف لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الاشارة وبالنسبة لجميع المؤمنين تكون صفات ويكون الخبر قوله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ••• » وهذا القول الكريم اشتمل على أولى صفات عباد الرحمن وهى المشى على الأرض هونا » والهون مصدر بمعنى اللين والرفق وهو صفة لمصدر محذوف تقديره مشيا فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق أى يمشون فى سكينة وخضوع ووقار فليس فى مشيتهم تكلف ولا تصنع ومخيلة كما قال تعالى : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير »(٧) •

وكما قال تعالى : « ولا تمشى فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبل طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها»(٨)

---

(٧) سورة لقمان الآية ١٨ ـ ١٩

(٨) سورة الاسراء الآية ٣٧ ـ ٣٨ •

يقول الامام ابن كثير : أى يمشون بسكينة ووقار وليس المراد بأنهم يمشون كالمرضى ضعفا ورياءا فقد كان سيد ولد آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدا فقال : ما بالك أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة »(٩) .

وظاهر قوله تعالى : « يمشون على الأرض هونا » أنه مدح للمشية بالأرجل وهو الذى عليه جمهور المفسرين . وجوز الزجاج أن يكون قوله : «يمشون» ، عبارة عن تصرفاتهم فى معاشرة الناس وذكر المشى لما أنه انتقال فى الأرض وهو يستدعى معاشرة الناس ومخالطتهم .

يقول الامام الألوسى : « والظاهر بناء المشى على حقيقته وأن المراد مدحهم بالسكينة والوقار فيه من غير تعميم . نعم يلزم من كونهم كذلك أنهم هينون لينون فى سائر أمورهم بحكم العادة على ما قيل »(١٠) .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : والمشى الهين على الأرض دليل على التواضع ولين الجانب وسماحة الخلق بخلاف المشى الذى يضرب وجه الأرض تيها فيها وفخرا وقد نهى الله تعالى عنه فى قوله : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »(١١) .

ويقول الشيخ ابن عاشور : والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر

---

(٩) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٢٤ .

(١٠) تفسير الالوسى ج ١٩ ص ٤٤ .

(١١) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٩ ص ٥٥ .

التخلق بالرحمة المناسبة لعباد الرحمن لأن الرحمة ضد الشدة فالهون يناسب ماهيتها وفيه سلامة من صدم المارين »(١٢) .

وعلى هذا يكون الله سبحانه وتعالى قد وصف تلك الطائفة السامية بالتواضع فى سمتهم وهو المشى على الأرض هونا ثم وصفهم بوصف آخر يناسب التواضع ويبعد عن التطاول وذلك فى معاملتهم مع غيرهم فقال تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أى واذا خاطبهم الجاهلون أى السفهاء وقليلو الأدب أو المشركون بسفاهة وقلة أدب لم يقابلوهم بالمثل بل قابلوهم بالحسنى ولين الجانب فعبر عن ذلك بقولهم « سلاما » .

ولاشك أن ترك المقابلة بالسيئة أمر مستحسن فى الشرع وسبب لسلامة العرض والورع ، ولأن السنابل الملىء بالحب تبدو منحنية الرؤس أما السنابل الفارغة فهى التى تناطح الكواكب فى أفلاكها .

وانتصب « سلاما » على المفعولية المطلقة ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى السلامة أى خير بيننا ولا شر فنحن مسلمون منكم ويجوز أن يكون مرادا به لفظ التحية فيكون مستعملا فى لازمه وهو المشاركة لأن أصل استعمال لفظ السلام فى التحية يؤذن بالتأمين والتأمين أول ما يلقى به المرء من يريد اكرامه فتكون الآية فى معنى قوله :« واذا سمعوا اللغو عرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(١٣) .

قال الحسن هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله تعالى :

---

(١٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٦٨ .

(١٣) سورة القصص الآية : ٥٥ وانظر تفسير التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٦٩ .

« والذين يبيتون لربهم سجدا على وجوههم « وقياما » على أقدامهم » وهذا بيان لحالهم مع الخالق اثر بيان حالهم فى معاملة الخلق •

والبيتوتة أن يدركك الليل نمت فيه أو لم تنم أى ومن صفاتهم أنهم يقضون جانبا من ليلهم ساجدين تارة على جباههم لله تعالى وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه سبحانه أى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة كما قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون »(١٤) •

وخص الليل بالذكر لأن العبادة فيه والطاعة تكون أسلم من الرياء وأقرب الى الخشوع الذى جعل الله الفلاح لمن يتصف به كما قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون »(١٥) • وقال تعالى : « أم من هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه »(١٦) مع ما فى الليل من ايثار لما لله تعالى على ما للنفس من حظوظ الدنيا ومتعها •

ولما كان السجود والقيام ركنا الصلاة فالمعنى يبيتون يصلون فوقع تفصيل فى التعبير عن الصلاة بركنيها تنويها بكليهما أى يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة لما للصلاة من منزلة عند الله فهى أفضل العبادات وأجل القربات وأحبها اليه تعالى وهى تشتمل على أكثر وأفضل أنواع الذكر وأحبه اليه سبحانه •

وفى قوله تعالى : « لربهم » اشارة الى أنهم يقصرون عملهم كله بالليل على ذكر الله لا يذكرون الا الله جل وعلا لا يشغلهم عن ذكره شىء فاللام هنا للاختصاص •

---

(١٤) سورة السجدة الآية ١٦ •

(١٥) سورة المؤمنون الآية ١ •

(١٦) سورة الزمر الآية ٩ •

وقدم « سجدا » على « قياما » ولم يعكس وان كان السجود متأخرا فى الفعل اما للاهتمام بالسجود وهو ما بينه النبى ﷺ بقوله « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »(١٧) أو لأنه أمر به المشركين فأبوا ولم يسجدوا أما عباده فله يبيتون سجدا أو لرعاية الفواصل ثم بين الله تعالى أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الله تعالى أنهم يخافون عذاب ربهم ويبتهلون اليه بالدعاء ويرفعون أكف الضراعة اليه أن يصرف عنهم عذاب جهنم ان عذابها كان غراما • انها ساءت مستقرا ومقاما » وذلك كقوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون »(١٨) وقولهم هذا يدل على تحقيق ايمانهم بالبعث والجزاء وان الأعمال الصالحة بذاتها لا تدخل الجنة لولا فضل الله ورحمته •

كما قال ﷺ : « فانه لا يدخل أحدا الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة »(١٩) •

والغرام : اللازم من العذاب وقال الزجاج هو أشد العذاب والشر الدائم ومنه سمى الغريم لملازميه ويقال فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به وغلب اطلاقه على الشر المستمر »(٢٠) •

أى يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان لازما دائما غير مفارق وهذا اللزوم اما للكافر أو المراد الامتداد بالنسبة للعاصى المؤمن كما فى لزوم الغريم •

---

(١٧) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع

(١٨) سورة المؤمنون الآية ٦٠ والسجود ج ٤ ص ٢٠٠

(١٩) صحيح البخارى بشرح فتح البارى كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ص ٣٠٠ رقم الحديث ٦٤٦٧ ج ١١ •

(٢٠) لسان العرب ج٥ص٣٣٤٧ وتفسير التحرير والتنوير ج١٩ص٨١

وجملة « ان عذابها كان غراما » يجوز أن تكون حكاية عن كلام القائمين ويجوز أن تكون من كلام الله معترضة بين اسمى الموصول • وعلى كل فهى تعليل لسؤال صرف عذاب جهنم عنهم • وقوله : « انها ساءت مستقرا ومقاما » يجوز أن يكون من كلام الله سبحانه فيكون تكريرا للاعتراض ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم فيكون تكرارا للتعليل وعلى كل فهو تعليل لدعائهم بسوء حال جهنم فى ذاتها وترك العطف للاشارة الى أن كلا منهما مستقل وان فى الموضعين للاعتناء بشأن الخبر •

و « ساءت » فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره «مستقرا» والمخصوص بالذم محذوف أى ساءت مستقرا ومقاما هى ، ومستقرا حال أو تمييز وقيل ان «ساءت» بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان» •

والمستقر • مكان الاستقرار الى أجل والمقام اسم مكان الاقامة أى ساءت موضعا لمن يستقر فيها بدون اقامة مثل عصاة المؤمنين فانهم يخرجون منها — وساءت مقاما لمن يقيم فيها من الكفار المكذبين للرسل المبعوثين اليهم فانهم فيها مخلدون •

ثم بعد أن يبين الله تعالى حسن معاملتهم مع المخلوقين وحسن معاملتهم مع الخالق بين حسن معاملتهم لأنفسهم وشأنهم فى سلوكهم ومعاشهم فقال تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » أى ان حالهم فى شئونهم الحياتية الاعتدال والتوسط فلا افراط ولا تفريط فلاهم مسرفون متجاوزون للحدود التى حدها الله تعالى ولا هم بخلاء فى انفاقهم الى درجة التقتير والشح ويظهر هذا المبدأ فى الانفاق المستمر الذى يتكرر من آن الى آخر حسب ما عند المرء من مال حتى يصبح له ذلك طبعا وسجية •

والمراد بالانفاق هنا الانفاق غير الواجب لأن الانفاق الواجب

لايذم الأمران فيه والانفاق الحرام لا يحمد مطلقاً بل أن الاقتار فيه مذموم فضلا عن الاسراف فيه على أن قوله تعالى : « اذا أنفقوا » يشعر بأنهم اختاروا أن ينفقوا والواجب لا خيار فيه ولا اسراف فيه أيضا .

واسم الاشارة فى قوله تعالى « وكان بين ذلك قواما » يعود على المذكور من الاسراف والتقتير . والقوام : التوسط والاعتدال سمى به لاستقامة الطرفين وتعادلهما كأن كلا منهما يقاوم الآخر كما سمى سواء لاستوائهما . والقوام بالفتح والكسر بمعنى واحد . وقيل القوام بالكسر ما يدوم عليه الشىء أو ما يقام به الشىء وبفتح القاف العدل والقصد بين الطرفين . وهو خبر لكان مؤكد للأول وهو « بين ذلك » واسمها مقدر فيها . أى وكان انفاقهم وسطا وقواما بين الاسراف والتقتير ، والقوام فى كل شىء بحسبه وهو أمر محمود استحسنه الشرع وندب اليه . وقد قيل الاقتصاد نصف المعيشة وما عال من اقتصد . لأن الاسراف من شأنه استنفاد المال فلا يدوم الانفاق .

والتقتير من شأنه امساك المال فيحرم من يستأهله ، ثم ان الاسراف والتقتير يحدثان اختلالا فى المحيط الاجتماعى والمجال الاقتصادى فحبس المال يحدث الأزمات ومثله اطلاقه بغير حساب فضلا عن افساد القلوب والأخلاق وأيضا فان الاقتصاد من أخلاق الأمم المتقدمة والمجتمعات المتحضرة التى تعيش حرة فلا يقوى أحد على فرض نفوذه عليها .

وهذا المعنى الكريم الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاءت به آيات أخرى من ذلك أن الله أوصى نبيه ﷺ بمقتضاه فى قوله تعالى: « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما

محسورا »(٢١) .

وأشار سبحانه الى هذا المعنى الكريم فى قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »(٢٢) وقوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(٢٣) .

ولشدة حرص الاسلام على الاعتدال فى الانفاق والاقتصاد فيه وأنه جعل من يسرف فى انفاقه الى الحد الذى لا يليق بمثله أو يقتر فيغل يده عن الانفاق الذى يليق بمن هو فى مثل حاله جعل سفيها ينبغى الحجر على تصرفاته ويلى أحد أوليائه أمر التصرف فيما يملك من الأموال وبعد أن بين الله تعالى ما عليه هؤلاء من طاعات وماتصفوا به من صفات كريمة أتبع ذلك ببيان تخليهم عن المفاسد وتجنبهم للمعاصى والرذائل التى تدمر المجتمعات الانسانية والتى كانت ملازمة لقومهم المشركين وقد بدأ القرآن الكريم بذكر أكبرها وأعظمها جرما وفسادا وافسادا فقال تعالى : « والذين لا يدعون مع الله الها آخر »

أى لا يشركون مع الله تعالى الها آخر ولا يعبدون معه غيره بل يخلصون له العبادة ويخصونه بالطاعة ويدعونه خوفا ورهبا وعليه يتوكلون .

ثم وصفهم بأنهم لا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق فقال تعالى : « ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق » أى لا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها من كفر بعد ايمان أو زنا بعد احصان

---

(٢١) سورة الاسراء الآية ٢٩ .

(٢٢) سورة الاسراء الآية ٢٦ .

(٢٣) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

أو قتل نفس بغير نفس فقوله الا بالحق متعلق بلا يقتلون والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أى لا يقتلونها نوعا من القتل الا قتلا ملتبسا بالحق وأن يكون حالا أى لا يقتلونها فى حال من الأحوال الا حال كونهم متلبسين بالحق .

وفى حذف المضاف واقامة المضاف اليه — أى حرم قتلها — مبالغة فى التحريم لأن التحريم انما يتعلق بالأفعال دون الذوات »(٢٤) .

ووصف النفس بالموصول فى قوله تعالى « التى حرم الله » لبيان أن قتل النفس قد تقرر تحريمه منذ أقدم العصور من لدن آدم عليه السلام كما حكى القرآن الكريم ذلك فى قصة ولدى آدم عليه السلام .

فيما جرى بينهما من محاورة بقوله : « قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك أنى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوأ بأثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين »(٢٥) .

لأن صلة الموصول ينبغى أن تكون معلومة لدى المخاطب حتى تزيل ما فى الموصول من ابهام وغموض .

ثم وصفهم بأنهم لا يزنون فقال تعالى : « ولا يزنون » أى لا يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح ولا ملك يمين مما أحل الله تعالى . والزنى جريمة شنعاء وفعلة نكراء لا يأتيها انسان ومعه ضمير

---

(٢٤) تفسير الألوسى جـ ١٩ ص ٤٧ بتصرف .

(٢٥) سورة المائدة الآية ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٣٠ .

حى أو ومضـــة من ايمان ولقد صـــدق رسـول الله ﷺ حيث يقول : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٢٦) •

ولذا كان النهى عن القرب من الزنى قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنى » مبالغة فى التحريم والنهى •

وفى نفى هذه القبائح الخطيرة عن تلك الطائفة المتميزة « عباد الرحمن » التعريض بما كان عليــه المشركون من القرشـــيين وغيرهم أعداء الله وأعداء الانسانية والا فلا حاجة اليه بعد وصفهم بالصفات السابقة من حسن المعاملة واحياء الليل بالصلاة ومزيد خوفهم من الله تعالى لظهور استدعائها نفى ما ذكر عنهم ، وكرر ذكر ايمـــانهم بالله وحده حيث انه تقدم ما يدل عليه وأنه تعالى لا يضيفهم الى نفســـه الا اذا كانوا منزهين عن الشرك به لاظهار كمال الاعتناء والاخلاص وتهويل أمر القتل والزنى بنظمهما فى سلكه(٢٧) •

فعن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتـــل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك • قال ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول الله ﷺ : «والذين لا يدعون مع الله الها آخر »(٢٨) الى قوله تعالى « ولا يزنون » •

وقد جمع التخلى عن هذه الجرائم الثلاث فى صلة موصول واحد ولم يكرر اسم الموصول كما كرر فى ذكر صفات تحليهم للاشارة الى

---

(٢٦) صـــحيح البخـــارى •

(٢٧) انظر تفسير الألوسى جـ ١٩ ص ٤٧ •

(٢٨) صـــحيح البخارى بشرح البارى كتـاب التفســير باب والذين لا يدعون مع الله الها آخر جـ ٨ ص ٤٩٢ عن عبد الله بن مسعود •

أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله الها آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقا بالشرك وذلك قتل النفس والزنى فجعل ذلك شبيه خصلة واحدة وجعل فى صلة موصول واحد »(٢٩) .

ثم بين الله تعالى الجزاء الذى يترتب على اقتراف جريمة من تلك الجرائم السابقة فقال تعالى : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما » أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة « يلق » فى الآخرة « أثاما » أى عقابا أو جزاء اثمه وذنبه قال عبد الله بن عمر وعكرمة ومجاهد أن « أثاما » واد فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة(٣٠) .

والمتبادر من الاشارة أنها الى المجموع أى ومن يفعل مجموع الثلاث ومن المعلوم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضها عدا الاشراك دون جزاء من يفعل جميعها وأن البعض أيضا مراتب وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلق أثاما لأن لقى الآثام بين هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه وقد نهضت أدلة متضافرة من الكتاب والسنة على أن ما دون الكفر من المعاصى لا يوجب الخلود مما يقتضى تأويل ظواهر الآية ويجوز أن تكون مضاعفة العذاب مستعملة فى معنى قوته أى يعذب عذابا شديدا وليست لتكرير عذاب مقدر(٣١) .

وقوله تعالى : « يضاعف له العذاب » بدل اشتمال من قوله تعالى : « يلق أثاما » وجعل الجزاء مضاعفة العذاب والخلود فى جهنم فمضاعفة العذاب أن يعذب مرتكب كل جرم مما ذكر عذابا مناسبا ولا يكتفى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك بالله تعالى وهذا يعنى أن الشرك لا ينجى صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم

---

(٢٩) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٧٣ .
(٣٠) فتح البيان فى مقاصد القرآن جـ ٦ ص ٤٧٦ .
(٣١) انظر تفسير التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٧٤ .

والمفاسد لأن دعوة الاسلام للناس جاءت بالاقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها وهذا معنى قول من قال من العلماء بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة يعنون خطاب المؤاخذة على ما نهوا عن ارتكابه وليس المراد أنهم يطلب منهم العمل اذ لا تقبل منهم الصالحات بدون الايمان ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب التكليف لا الاتلاف والجنايات وخطاب الوضع كله وأما الخلود فى العذاب فقد اقتضاه الاشراك »(٣٢) .

وقوله تعالى « مهانا » أى ذليلا حقيرا وبهذا يكون مرتكب تلك الجرائم قد جمع بين العذابين العذاب الحسى للبدن والعذاب المعنوى للروح أو النفس .

ثم استثنى سبحانه وتعالى التائبين من هذا العذاب الخزى والمهين فقال تعالى « الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما » .

الاستثناء هنا من عموم الضمير الواقع فاعلا فى قوله تعالى : « يلق آثاما » فيستثنى من الوقوع فى هذا العذاب من هؤلاء المرتكبين لتلك الآثام والجرائم من تاب ورجع الى الله مؤمنا به غير مشرك مستقيما على ما أمر به من عدل واحسان فلايقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ولايزنى ولايأتى شيئا مما نهى الله عنه فمن اجتنب هذه الكبائر وغيرها فانه لن يلق هذا المصير بل يخرج من زمرة هؤلاء المجرمين ويأخذ طريقه مع عباد الله المكرمين .

والاستثناء لا يدل على قبول التوبة لأنه أثبت أنه مضاعف له العذاب فيكفى لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب وانما الذى يدل على قبول التوبة قوله تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم

---

(٣٢) أنظر التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٧٤ ـ ٧٥ بتصرف وتلخيص

حسنات » لأن معنى تبديل سيئاتهم حسنات أنه يمحو عنهم سوابق المعاصى بالتوبة ويثبت لهم مكانها لواحق الطاعات والاشارة بقوله أولئك تعود الى الموصول فى قوله « الا من تاب » والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى الأفعال الثلاثة باعتبار اللفظ ، أى أولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح يبدل الله سيئاتهم التى اقترفوها من الشرك والقتل والزنا بثواب تفضلا منه وتكريما واختلف العلماء فى المراد بقوله : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات على وجوه

أحدها قول ابن عباس والحسن ومجاهد : ان التبديل انما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن أعمال الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنى عفة واحصانا فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب .

وثانيها قال الزجاج : السيئة بعينها لا تصير حسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات .

وثالثها قال قوم : ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية.وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات (٣٣) وعلى هذا التبديل فى الآخرة .

---

(٣٣) ذكره السيوطى فى الجامع ج ١ ص ٦٧٥ وعزاه للحاكم ووافقه الذهبى ولكن بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليتمنين أقوام اكثروا من السيئات قالوا بم يا رسول الله قال الذين بدل الله سيئاتهم حسنات أنظر المستدرك ج ٤ ص ٢٥٢ ط دار الكتاب العربى .

ورابعها قال القفال والقاضي : أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة لأن الاثابة لا تكون الا من الله تعالى(٣٤) .

وأقول لعل المراد أن الله تعالى يغفر سيئات من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ويعطى بدل كل سيئة ما يصلح أن يكون ثواب حسنة تفضلا منه عز وجل وتكرما لا أنه يكتب له أفعال حسنات لم يفعلها ويثاب عليها أو لأنه كلما تذكر ما مضى واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار .

وقوله تعالى : « وكان الله غفورا رحيما » تذييل مقرر لمضمون ما قبله من التبديل وتكفير السيئات بالحسنات .

أى وكان الله واسع المغفرة والرحمة لمن تاب اليه وأناب .

وقوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا » أى ومن يترك المعاصى ويندم عليها ويدخل فى العمل الصالح فانه بذلك يكون تائبا الى الله متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب وقد وقع الاخبار عن التائب اذ المتاب مصدر ميمى بمعنى التوبة فيتعين أن يضرف الى معنى مفيد يجوز أن يكون المقصود هو قوله « الى الله » فيكون كناية عن عظيم ثوابه .

ويجوز أن يكون المقصود ما فى المضارع من الدلالة التجدد أى

---

(٣٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٤ ص ١١٢ .

فانه يستمر على توبته ولا يرتد على عقبيه فيكون وعدا من الله تعالى أن يثبته على القول الثابت اذا كان قد تاب وأن توبته بالعمل الصالح .

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد أى من تاب وعمل صالحا فان توبته هى التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبى ﷺ : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه »(٣٥) .

فيكون كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا »(٣٦،٣٧) .

وليس بين هذه الآية والتى قبلها تكرار لأن الأولى فيما كان من الخصال التى تقدم ذكرها وأما الثانية فهى فيما كان من جميع الذنوب فالأولى خاصة والثانية تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصى بعد أن ذكر قبولها من أمهات الذنوب والمعاصى .

ثم بعد ذلك تستطرد السورة الكريمة فى ذكر صفات عباد الرحمن التى هى من كمال الايمان والتخلق بفضائله ومجانبة أحوال أهل الشرك وأعمالهم .

---

(٣٥) صحيح البخارى بشرح البارى كتاب العتق باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ج ٥ ص ١٩ .

(٣٦) سورة التحريم الآية ٨ .

(٣٧) أنظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٨ .

فيقول الله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما » .

أصل الزور تحسين الشيء ووصفه بغير صفته ووضعه في غير موضعه مأخوذ من الزور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم(٣٨) .

والزور الباطل من قول أو فعل وأعظمه الشرك وقد غلب استعماله في الكذب واللغو : كل ما لا يعد به من الأقوال والأفعال(٣٩)

وقوله : « يشهدون » ان كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي لا يشهدون شهادة الزور ويكون « زورا » منصوبا على نزع الخافض أي لا يشهدون بالزور أو مفعولا مطلقا لبيان نوع الشهادة أي لا يشهدون شهادة هي زور لا حق .

وان كان من الشهود بمعنى الحضور كما ذهب اليه الجمهور فيكون معناه أنهم لا يحضرون مجالس الباطل التي كان يحضرها المشركون وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة وأعياد المشركين وألعابهم وغير ذلك مما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان وعليه فيكون « الزور » مفعولا به لـ « يشهدون » .

وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين ولا بتقاعد عندهم أما شهود مواطن عبادة الأصنام فذلك قد دخل في قوله تعالى « والذين لا يدعون مع الله الها آخر » .

---

(٣٨) لسان العرب ج ٣ ص ١٨٩ والمفردات في غريب القرآن ص ٢١٧ والتفسير الوسيط ج ١٩ ص ٧٨ .

(٣٩) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

أى أن من صفات عباد الرحمن انهم لا يؤدون الشهادة الكاذبة ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم بحضورهم مجالسهم لأن مشاهدة الباطل وحضور مجالسه مشاركة فيه ودليل على الرضا به وتشجيع على وجوده وذلك منهم سمو بأنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيه واكرام لها وحفاظ على دينهم وصون لمروءتهم وفى هذا ثناء على هؤلاء المؤمنين بترفعهم عما كانوا عليه فى الجاهلية وتنزههم عنه .

وفى التعبير بقوله : « واذا مروا ... » دلالة على أن مرورهم لم يكن متعمدا وانما كان عن طريق المصادفة والاتفاق أى اذا وقع لهم فى طريقهم مشهد من مشاهد اللغو واللهو لم يقفوا عنده ولم يلقوا بآذانهم وأبصارهم اليه لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها وأعظم من أن يشاركوا فيها لا من قريب ولا من بعيد واعادة الفعل مروا لبناء الحال عليه ، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : «واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٤٠) .

ثم تبين لنا السورة الكريمة مدى تأثرهم بالقرآن الكريم وانتفاعهم به فيقول الله تعالى : « والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » ، والمراد بآيات ربهم آيات القرآن الكريم أو ما فيه من عظات وعبر أى أن من صفات المؤمنين الذين هم عباد الرحمن انهم اذا سمعوا آيات القرآن الكريم فتحوا لها قلوبهم ووعوها بعقولهم وأكبوا عليها سامعين بآذان واعية وعيون راعية .

فالنفى هنا متوجه الى القيد لا الى المقيد والخرور السقوط على

---

(٤٠) سورة القصص الآية : ٥٥

غير نظام وترتيب وليس المراد انهم يخرجون حقيقة وانما هو مستعار للحرص على العمل بعزم وقوة كما يقال : أكب فلان على كذا أى صرف جهده فيه وأقام عليه .

يقول الامام البيضاوى : « لم يخروا » لم يقيموا عليها غير واعين ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر بل أكبوا عليها سامعين مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفى نفى الحال دون الفعل كقولك لا يلقانى زيد سلما »(٤١) فالنفى هنا للسلام لا للقاء .

وفى التعبير بقوله « يخروا » دون أكبوا مثلا مبالغة فى تأثرهم بالتذكير بآيات ربهم حين يسمعونها وتعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين اذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتغيروا عما كانوا عليه مستمرين على كفرهم وضلالهم وعصيانهم وفجورهم كالأصم الأعمى حيث ان حالهم عند سماع القرآن كحال الذى يخر للأرض اثلا يرى ما يكره بحيث لم يبق له شىء من القوة على النهوض والاعتدال فهذه حاله هى غاية فى نفى مكان القبول .

ولقد ورد فى القرآن الكريم آيات تدل على وجل قلوب المؤمنين وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون »(٤٢) .

وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى

---

(٤١) تفسير البيضاوى ص ٣٥٧ وما بعدها .

(٤٢) سورة الأنفال الآية ٢ .

تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد »(٤٣) .

وقوله تعالى : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما » يبين مدى عناية هؤلاء المؤمنين بالاسلام وحب انتشاره فى ربوع الأرض وتكثير أتباعه فيدعون الله تعالى أن يرزقهم أزواجا وذريات تقر بهم أعينهم وتسر بمكانتهم وسيرهم على منهج الاسلام ذلك المنهج القويم وتطيب بتحليهم بالفضائل العالية واتصافهم بأحسن الشمائل السامية حتى يأتلف جمعهم وتتوحد كلمتهم ولا يقع فى محيطهم ما يثير شقاقا أو يبعث ألما وحسرة لخلاف زوجة وضلال ولد فان هذا من شأنه أن يجور على صلة المؤمن بربه ويشغله عن ذكره قليلا أو كثيرا وكما سألوا الخير والتوفيق والسداد لأزواجهم وذرياتهم فقد سألوا لأنفسهم أن يوفقهم الله تعالى للثبات على الايمان وأن يجعلهم قدوة يقتدى بهم المتقون حتى يكونوا أسوة مثلى فى الطريق الى الله تعالى وبذلك يكون لهم ثوابهم وثواب من اقتدى بهم الى يوم القيامة . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شىء »(٤٤) .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك

---

(٤٣) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(٤٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١٦ ص ٢٢٦ .

التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين »(٤٥) •

و « من » فى قوله « من أزواجنا » يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله « من أزواجنا وذرياتنا » ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت أسد ويحتمل أن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من أزواجنا ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح(٤٦) •

وقرة العيون كناية عن الفرح والسرور وهو مأخوذ من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة أو مأخوذ من القرار لأن ما يسر يقر النظر به ولا ينظر الى غيره ووحد قرة لأنه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع •

وقال « أعين » وهو جمع قلة ولم يقل عيون جمعا للكثرة لأن عيون المتقين بالنسبة الى غير المتقين قليلة على أن ما فى القرآن الكريم من عيون فهو للعين الجارية وما فيه من أعين فهو للعين الباصرة فلعله لهذا اختار الأعين — وجاء تنكير الأعين لارادة تنكير القرة لتعظيمها — ووقع الاخبار بـ « واماما » وهو مفرد عن ضمير جماعة المتكلمين لأن المقصود ان يكون كل واحد منهم اماما يقتدى به فالكلام على التوزيع أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم •

وبعد أن بين الله لنا ما اتصف به هؤلاء الأتقياء الأصفياء من صفات كريمة وسجايا حميدة بين لنا ما أعده لهم من ثواب كريم ونعيم مقيم يوم يلقونه فيقول تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما

---

(٤٥) سورة الأحقاف الآية ١٥ •

(٤٦) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٢٢ •

صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما • خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » الاشارة فى قوله « أولئك » الى عباد الرحمن المتصفين بما فى حيز جملة الموصولات الثمانية لبيان أن ما يرد بعده كانوا به أحرياء لأجل ما ذكر قبله مع ما فيه من التنبيه على بعد منزلتهم وعلو درجاتهم ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى « يجزون الغرفة » والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الأبدية اثر ما لهم فى الدنيا من الأعمال الصالحة السنية •

والغرفة : الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة(٤٧) •

وأفردت هنا لأن المراد بها المنزلة أى يجزون المنزلة التى فيها الغرفة وفيها الغرفات لأنها جميعها فى درجة واحدة • كما قال تعالى « لهم غرف من فوقها غرف مبنية »(٤٨) • وكما قال تعالى : « وهم فى الغرفات آمنون »(٤٩) •

ولا خلاف بين أهل اللسان العربى فى وقوع اطلاق المفرد وارادة الجمع مع تعريف المفرد وتنكيره واضافته وهو كثير فى القرآن الكريم وفى كلام العرب ، فمن أمثلته فى القرآن واللفظ معرف قوله تعالى : « وتؤمنون بالكتاب كله »(٥٠) أى الكتب كلها بدليل قوله تعالى : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه »(٥١) •

---

(٤٧) تفسير أبى السعود جـ ٦ ص ٢٣١ – ٢٣٢ •

(٤٨) سورة الزمر الآية ٢٠ •

(٤٩) سورة سبأ من الآية ٣٧ •

(٥٠) سورة آل عمران من الآية ١١٩ •

(٥١) سورة البقرة من الآية ٢٨٥ •

وقوله « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب »(٥٢) وقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا »(٥٣) أى الملائكة بدليل قوله تعالى : « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة »(٥٤) وقوله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء »(٥٥) يعنى الأطفال الذين لم يظهروا .

وأمثلته واللفظ منكر قوله تعالى : « ان المتقين فى جنات ونهر »(٥٦) يعنى وأنهار بدليل قوله تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن »(٥٧) وقوله تعالى « وحسن أولئك رفيقا »(٥٨) أى رفقاء وقوله تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير »(٥٩) أى مظاهرون لدلالة السياق فيها كلها ومن أمثلته واللفظ مضاف قوله تعالى : « ان هؤلاء ضيفى »(٦٠) يعنى أضيافى وقوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره »(٦١) أى أوامره وقول الشاعر :

---

(٥٢) سورة الشورى من الآية ١٥ .
(٥٣) سورة الفجر الآية : ٢٢ .
(٥٤) سورة البقرة من الآية ٢١٠ .
(٥٥) سورة النور من الآية ٣١ .
(٥٦) سورة القمر الآية ٥٤ .
(٥٧) سورة محمد الآية ١٥ .
(٥٨) سورة النساء الآية ٦٩ .
(٥٩) سورة التحريم الآية ٤ .
(٦٠) سورة الحجر الآية ٦٨ .
(٦١) سورة النور الآية ٦٣ .

فقلنا أسلموا أنا أخـوكم ... وسلمت من الإحن الصدور

يعني انا اخـوانكم(٦٢) .

والباء في قوله : بما صـبروا للسببية و « ما » مصـدرية أي بصبرهم على ما تحملوا من أذى المشركين وصبرهم على مشقة الطاعة لله تعالى وكبح جماح شهواتهم لأنه لولا صبرهم لانحلت عـزائمهم وفترت هممهم واختل توازنهم على الصراط المستقيم ولكنه بالصـبر استطاعوا أن يصمدوا أمام الشدائد وأن يتحملوا ما يصابون به في أموالهم وأنفسهم مستسلمين لأمر الله تعالى راضين بقضائه وحكمه — وقيل الباء للبدل أي بدل صـبرهم ولم يذكر متعلق الصـبر ليعـم ما سلف من عبادتهم فعلا وتركا وغيره من أنواع العبادة والكل مدمج فيه ... ويعلم من ذلك وجه ايثار « صبروا » على فعلوا(٦٣) .

وقوله تعالى : « ويلقون فيها تحية وسلاما » أي ويقابلون في تلك المنازل الرفيعة بتحية مباركة وسلام كريم من ربهم عز وجـل ومن الملائكة الـكرام ومن بعضـهم لبعض احتفـاء بهم وتكريما لهم وفرحا وسرورا كما قال تعالى : « سلام قولا من رب رحيم »(٦٤).

وقوله تعالى : « يوم يلقونه سلام »(٦٥) تحيتهم وقوله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم

---

(٦٢) انظر دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ١٧ وما بعدها بتصرف يسـيـر .

(٦٣) انظر تفسير الألوسي ج ١٩ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٦٤) سـورة يس الآيـة ٥٨ .

(٦٥) سـورة الأحزاب من الآية ٤٤ .

عقبى الدار »(٦٦) وجمع بين التحية والسلام لأن التحية الدعاء بالتعمير حيث ان أصل معناها حياك الله وأبقاك وهى مشتقة من الحياة • والسلام الدعاء بالسلام فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة لهم باقيا لا ينفد أبدا ولما كان بقاؤهم وخلودهم فى الجنة محققا كان المقصود من الدعاء بالتعمير والخلود تأمينهم وايناسهم وادخال السرور عليهم بالنعيم المقيم الذى هو ملازم لبقائهم • ويرجع السلام الى تذكيرهم بكون هذا النعيم الذى يعيشون فيه خالصا من شوائب الضرر بعيدا عما يعكر الصفو وهذا ما يجعل قلب المرء يخفق من شدة الفرح والسرور •

وقوله تعالى : « حسنت مستقرا ومقاما » مقابل ما قاله فى حق الكافرين « ساءت مستقرا ومقاما » وهو مثل سابقه فى الاعراب

يقول الامام فخر الدين الرازى : أما قوله خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » فالمراد أنه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن صفتهما الدوام وهو المراد من قوله « خالدين فيها » ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله « حسنت مستقرا ومقاما » وهذا فى مقابلة قوله « ساءت مستقرا ومقاما » أى ماأسوأ ذلك وما أحسن هذا »(٦٧) •

وفى ختام هذه السورة الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن للناس جميعا أن الله ما خلقهم الا لعبادته وأن من لا يعبد الله تعالى فكأنه غير مخلوق لأنه لم يؤد ما خلق له ومن لم يؤد ما خلق له فلا قيمة له اذ قيمة الناس عند الله

---

(٦٦) سورة الرعد الآية ٢٣ ، ٢٤ •

(٦٧) تفسير الفخر الرازى ج ٢٤ ص ١١٦ •

هى فى عبادتهم له واتجاههم اليه فى السراء والضراء • فقال تعالى: « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » فهذا القول الكريم يبين لنا أن عباد الرحمن الفائزين بتلك النعم الجليلة والعطايا الكريمة فى دار النعيم المقيم انما استأهلوها بما اكتسبوا من صفات حميدة لولاها لم يعتد بهم ربهم أصلا ولم يبال لهم بالا • يقول الامام الزمخشرى : انما اكترث — الله — لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم •• ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ، ولم يعتد بهم ، ولم يكونوا عنده شيئا يبالى به(٦٨) واذا كان الأمر هكذا فلا اعتداد من الله ولا اكتراث بمن خالفوا أمره وأمر رسوله ﷺ واتبعوا أهواءهم وضلوا عن الصراط المستقيم •

ومعنى « ما يعبأ » أى ما يبالى وما يهتم مشتق من العبء بكسر العين وهو الحمل أى الشىء الثقيل وما يحتمل أن تكون استفهامية، ويقول الامام القرطبى : ولا يبعد أن تكون نافية لأنك اذا حكمت بأنها استفهامية فهو نفى خرج مخرج الاستفهام كما قال تعالى : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » ثم يقول قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع ما نصب والتقدير أى عبء يعبأ بكم أى أى مبالاة يبالى ربى بكم لولا دعاؤكم أى لولا دعاؤه اياكم لتعبدوه فالمصدر الذى هو الدعاء على هذا القول مضاف الى مفعوله وهو اختيار الفراء وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف فى قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال »(٦٩) تقديره لم يعبأ بكم »(٧٠) •

---

(٦٨) تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٠٣ •

(٦٩) سورة الرعد من الآية ٣١ •

(٧٠) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٨٤ •

وجيء بحرف النفى « ما » الذى يتسلط على الفعل الماضى بدلا من « لا » الذى يتسلط على الفعل المضارع للمبالغة فى النفى وأنه نفى لا يتعلق بزمن دون زمن وانما يقع فى كل الأزمان على خلاف النفى بلا الذى يفيد النفى بالمستقبل وحده •

والخطاب فى قوله تعالى : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » يحتمل أن يكون موجها الى المشركين بدليل تفريع « فقد كذبتم » عليه وهو تهديد لهم وعلى هذا الاحتمال يكون المصدر مضافا لمفعوله وفاعله محذوف والضمير فى « يكون » عائدا الى التكذيب المأخوذ من « كذبتم » أى قل يا أيها الرسول الكريم لهؤلاء الكافرين ما يعبأ بكم ربى ولا يبالى بكم لولا دعاؤه اياكم على لسانى الى توحيده وعبادته وحيث انى قد دعوتكم وكذبتم دعوتى فسوف يكون عاقبة ذلك التكذيب ملازمة العذاب لكم •

ويحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين والمصدر مضافا الى الفاعل والمفعول محذوف أى قل للمؤمنين ما يعبأ بكم ربى لولا ايمانكم وعبادتكم أو لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد •

ثم أفرد الكافرين بالخطاب فقال : «فقد كذبتم «أيها الكفار»فسوف يكون لزاما » أى فسوف يكون جزاء التكذيب «لزاما» أى عذابا دائما يقول الامام فخر الدين الرازى : « ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه : ان من عادتى أن أحسن الى من يطيعنى وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك »(٧١) •

واللزوم مصدر لازم وقد صيغ على زنة المفاعلة لافادة اللزوم وعدم المفارقة والاخبار باللازوم من باب الاخبار بالمصدر للمبالغة

---

(٧١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٤ ص ١١٧ •

وقد اجتمع فيه مبالغتان : مبالغة فى صيغته تفيد قوة لزومه ومبالغة فى الاخبار به تفيد تحقق ثبوت الوصف .

وجمهور العلماء على أن المراد باللزام هنا ما لزم المشركين يوم بدر وبه قال ابن مسعود وروى عن أبى بن كعب وأبى مالك ومجاهد وقتادة ويؤيده ما فى صحيح مسلم عن مسروق عن عبد الله قال خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر »(٧٢) وقالت طائفة هو عذاب الآخرة »(٧٣) وقيل اللزام التكذيب نفسه والمعنى فسوف يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله ويدخل فى هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذى يلزمونه وكذا مكابرة ومعاندة أبى لهب حتى مات وهو يسمع « تبت يدى » ليلا نهار ولم يدر بخلده قول لا اله الا الله محمد رسول الله حتى ولو بالكذب من لسانه فقط حتى يظل للقرآن حفظه الذى وعد به ربنا « ان نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ولقد صدق الله وعده(٧٤) .

والله أعلى وأعلم وأجل وأحكم .

---

(٧٢) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب الدخان ج ١٧ ص ١٤٣ .

(٧٣) أنظر تفسير الألوسى ج ١٩ ص ٥٥ وفتح البيان فى مقاصد القرآن ج ٦ ص ٤٨٤ وتفسير القرطبى ج ١٣ ص ٨٦ .

(٨٤) خواطر الشعراوى حول تفسير القرآن فى مواضع مختلفة .